الغزوة الوهابية لشرق الاردن

رأي في الوهابية — هل ايديولوجية العرب قابلة لعقد التحالفات ؟ — هل في الامكان تأليف حلف عربي ؟ ماذا يريد السلطان ابن السعود ؟ — شعور اهل فلسطين

بقلم محمد علي الطاهر ((نشر سنة ١٩٢٢ في جريدة السياسة بالقاهرة))

لم تعد الوهابية ذلك الغول الذي كان يحسب العالم الاسلامي حسابه ويتوقع خطره ، لان المذهب الحنبلي الوهابي بات اليوم معروفا للناس واصبح له من الانصار والمريدين ما يجعل البعض يتوقع له مستقبلا زاهرا لهيئته ، ويعتقد الى ان يدين به سكان الجزيرة العربية . فاذا كانت البروتستانتية في العالم المسيحي قد حاربت بعض الخرافات بانيا وعدها انصارها حركة اصلاحية في الدين المسيحي ، فان الوهابية هي العدوة لمعظم البدع التي جعل المخرفون بينها وبين روح الدين الاسلامي صلة وسببا . ونحن اذا رجعنا الى نشأة الوهابية الاولى في اوائل القرن الماضي ، نجد ان الحكام الترك للعالم العربي قد انذروا منها ، كما ذعر الانكليز في اواخر القرن الماضي من الحركة المهدوية في السودان .

فكما ان الترك قد قاوموا الوهابية التي اسسها باشيعة الى الامة العربية بقبس من نور سطع في قلب الجزيرة ، فاخمدوه بواسطة محمد علي باشا الكبير وجيش مصر ، فكذلك الانكليز فانهم لم يخمدوا الحركة المهدوية وبقوا واقفين دولة التعايشي الا بواسطة جيش مصر . والغريب ان قصد الترك من تكليف محمد علي باخماد الحركة الوهابية كان كقصد الانكليز من ايكال امر اخماد حركة السودان الى جيش مصر ، فقد اراد الترك ان يتخلصوا من تلك الحركة العربية ومن حركة محمد علي الاستقلالية في وقت واحد ، فشرعوا الاولى بالثانية فقضى محمد علي باشا على الوهابية وضعف جيشه ، وشرب الانكليز حركة السودان بجيش مصر فماتت حركة المهدي وضعف جيش مصر كما ارادوا . وهذا من غرائب الاتفاق !

وقد دار الزمان دورته ، فمضى نحو قرن واذا بالوهابية تعود وهي اقوى مما كانت واعز بانيا ، وها هي دولتها اليوم تنشر اعلامها من خليج العقبة شرقا حتى البحر الاحمر غربا ، وقد مضى الزمان الذي كان يقوم فيه المستبدون بتحريك عواطف المسلمين المذهبية القضاء على الحركات الاصلاحية .

نحن لا نتنصر للوهابية لا ننصر الشر عليها ، فالزمان وحده كفيل باظهار بعدها ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

****

يقول البعض ان طبائع الاعراب تتنافى مع الحياة الاجتماعية بالنظر ابدا وتهم وانفتهم عن الخضوع لرئيس واحد ، وهم بنوه يستدلون على هذه النظرية بنظريات ابن خلدون التي اوردها في مقدمته . ولكن ما قول القراء في خضوع هذه الاقوام العربية الوهابية للسلطان ابن سعود طاعة عمياء فيسيرون في بريه سهلة نحو ٥٠٠ ميل للوصول الى عمان بشرق الاردن للاجهاز على عرشها ، وهل يخيل احد ان هذه الجموع كانت تسير نحو عمان وهي تدري شيئا من مرماها ؟ او انها كانت تعلم ما هو الهدف الذي يريده السلطان من هذه الحملة ؟ الجواب كلا . اذن فلماذا لا يوقف الخليفة العربي الذي طالما حلم به الناس

عاديات الاجانب عن بلاد العرب ؟

نحن نعرف ان العرب قد اللوا في الجاهلية اكثر من حلف للحفاظ التوازن بين القبائل وذود القوى عن الضعيف قريبا . ونعرف هذه الاحلاف الهنا * حلف الفضول * الذي تألف بعد حرب الفجار في مكة . فقد روى الزبيدي في كتابه (الروض الانف) عن هذا الحلف ما خلاصته :

وكان حلف الفضول اكرم حلف سمع به واشرفه ، وكان اول من تكلم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب . وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل ، وكان ذا قوة بمكة وشرف فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الاحلاف عبد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وعدي ، وبني كعب ، فابوا ان يعينوه على العاصي بن وائل واتهروه ، فلما رأى الزبيدي الشر ، اوفى على جبل ابي قبيس عند طلوع الشمس — وقريش في انديتهم حول الكعبة — فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال ما لهذا مترك . فاجتمعت هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة ، في دار ابن جدعان ، فصنع لهم طعاما وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فيما ، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه ما بل بحر صوفة ، وما رسى حراء وثبير مكانهما ، وعلى التأسي في المعاش ، ثم مشوا الى العاصي بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه ، وقال الزبير رضي الله عنه :

حلفت انه قد كان ما قد علمتم ... وان كنا جميعا اهل دار
بحسبه الفضول اذا هو دعا ... يعز به الغريب اذى الجوار
ويعلم من حوالي البيت اننا ... اباة الضيم نمنع كل عار

فعلى هذا نقدم يتبين لنا ان روح المحالفات كانت موجودة عند العرب ، فلو قام بعض الامراء اليوم واعادوا لهذه المبدأ بعض الاعتبار وتعهدوا لأثمرت وازهرت واثمرة . .

قد يقول قائل : ولكن الملك حسين بن علي ملك الحجاز قد سعى كثيرا للوصول الى اتحاد حلف عربي واله نادى منذ عامين باعلان الوحدة العربية ، فنقول ان مساعي الملك حسين لم تتعد حد التمني ، وقد ذهب بعضهم الى ان الحسين لا يرغب في هذا الحلف ، وهو انما نادى بوحدة بتراء تضم فقط الحجاز وشرق الاردن والساحل — وليت هذا كان باكمله فان العراق يحميه تحت الحماية البريطانية وكذلك شرق الاردن . واما فلسطين فانها في مركز غريب اذ تتنازعها بريطانيا وعد بلفور والصهيونية الى جانب الاحتلال . اذن فالوحدة العربية ، التي سمعنا بها على تلك الصورة انما هي مشروع خيالي بينه وبين الحقيقة مئة عام والف فرسخ !

××××××××××

ان الوحدة العربية اذا لم تقم عامة امراء الجزيرة ليست بوحدة ، واجتماع كلمة هؤلاء الامراء اليوم بعيدة

من التحقيق كثيرا .. فاذا كنا نريد الوصول الى الوحدة العربية فيجب ان يبدأوا قبل ذلك بايجاد حلف عربي قوي لا سلطان للاجانب عليه . فان ظهر العرب بهذه الاهمية صار الوصول الى الوحدة في حيز الامكان

هذا ويمكن ان يؤلف الحلف اليوم من سلطان نجد والامام يحيى وامام عمان . اقول ان ذلك بالامكان لان مصالح هؤلاء الامراء ان لم تكن متفقة فهي على الاقل غير متضاربة كثيرا كما هي الحالة بين الادريسي والملك حسين ، او بين هذا والسلطان ابن سعود فلو تألف الحلف من الامراء الثلاثة او من ابن سعود والامام يحيى فقط لاستطاع هذا الحلف بالنظر الى قوة هاتين الدولتين ، ان يفرض على ناصية الحال في كافة انحاء الجزيرة ومنع ذلك بالنظر الامراء الصغار الى الدخول الى الحلف ، والا فماذا تصنع امارتهم والحق بلادهم باملاك الحلفاء ثم انوفهم (١)

ولا سيما اعجب من محاولة التوفيق بين الملك حسين والسلطان بن سعود لان التوفيق بينهما ضرب من المحال لسببين ، الاول اعتداء الملك حسين بنفسه واحتقاره للسلطان نجد وملكه ، والثاني اتساع مطامع ابن سعود وتألمه من نظر الملك حسين اليه نظرة غير محترمة ، بينما هو اقوى منه مالا وامرا نفرا .

ويتساءل الناس عن غرض ابن سعود من مهاجمة شرقي الاردن لانها شرقي الاردن ، بل انه يعتدي بها نكاية بالامير عبد الله لانه يكره هذا الامير كرها عظيما ، والامير عبد الله يخافه اشد الخوف . وما الله بعزيمة الامير يوم "غرمة" و "ثرية" حول الطائف منذ اربعة اعوام امام الوهابيين بعيدة . ولكن الذي نرجحه ان ابن سعود ابعد نظرا من ان يضيع رجاله واموالة في سبيل انتقام شخصي كهذا الذي يتخيله البعض ، بل ان صدق الحدس ، يريد احتلال الزاوية الثالثة من جهات الجزيرة ، وهذه الزاوية هي شرقي الاردن والسعودية . فاذا تم لهذا السلطان ما نظن انه يقصده وهو البحر المتوسط جميع ملكه متصلة بالبحار الثلاثة ، الخليج العربي الملقب بالفارسي ، والبحر الاحمر ، لانه يملك الان امارة ابن عارض الواقعة بين الحجاز والبحر ، فالبحر الابيض المتوسط .

وهنا يرد علينا هذا السؤال وهو : كيف كان جمهور الفلسطينيين حول هذا الهجوم على الاردن ؟ والجواب على ذلك ان جمهور سكان فلسطين حيال حركات الوهابيين هو شعور الفريق عندما يأتي وهو في حالة من الغضب ، وعبارة اوضح انهم ينظرون الى الوهابيين نظرهم الى منقذ يتوقعون منه انقاذهم من الانتداب الانكليزي وتخليصهم من كابوس الصهيونية . وكما ان عداء الانكليز على الفلسطينيين اشتد ، وقربهم الى الوهابيين وغير الوهابيين ، بل الى زلزلة تبتلعهم وتخلصهم مما هم فيه من البلاء .. كما ان اهل فلسطين لا يميلون الى الامير عبد الله قط . هذا الذي شاهدناه في التعبير ولم نقل انهم يكرهونه .. وقد كانوا قبل ان يختبروه يحبونه محبة عظيمة جدا ، ولكنهم الآن وقد راوا منه ما رأوا فقد باتوا يرون فيه عدوا للانكليز وحليفا للصهيونية ..

القاهرة — محمد علي الطاهر

---

(١) قام السلطان عبد العزيز بن سعود بعد كتابة هذا الفصل بانه بر طويلة باجتياح الحجاز والعسير ، حيث زال هزر الهاشميين وعرش الادارسة ، بعد ان زال قبل ذلك امارة آل الرشيد في نجد الشمالية ، وامارة آل عارض في اليمامة التي تقع بين الحجاز والعسير فالظاهر ان ابن سعود يريد ان يمشي نحو الوحدة على طريقته الخاصة التي هي سلمية وفعلية ولا ينتظر الوحي من الانكليز ولا الجرائد ...